



إن المتبع لطرائق القرآن في مخاطبة النفس البشرية، وكذلك طرائق الجدال مع المعاندين سيلاحظ أن تركيز الخطاب هو على استشارة الفطرة وتذكيرها بخالقها لأنها مهيأة لذلك ومهيأة لأن تهتدى إلى أصول الإسلام، وكذلك يتوجه الخطاب إلى العقول التي لا يليق بها أن تكون بعيدة عن البديهيات، ولا تكون بعيدة عما يؤكده القرآن من حقائق.

الفطرة السليمة لا تصاب بالدهشة عندما تسمع ما يريده القرآن وما يقرره من التوحيد ومن نشر الفضائل وتقبيح الرذائل، وإدانة الفساد والظلم. فقد زوّدت هذه الفطرة ب بصيرة أخلاقية (بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معانيره

هذه الفطرة السليمة والعقول المستعدة للتفكير هي قوى موجودة ولكنها بحاجة إلى الوحي كي يوجهها إلى الصواب دائماً، وإلى الطريق الأعدل، وكى يوقظها من سباتها ويحفزها للعمل، ولذلك يدعوا المسلم في كل صلاة (اهدنا الصراط المستقيم) ولكن إذا احتفت هذه القوى وهذه الأسس أو أصابها الغشاوة على أعينها، فإن القرآن لا يؤثر في أصحاب القلوب الغافل والاذان الصم، بل إن أصحاب هذه القلوب إذا سمعوا القرآن ازدادوا بعداً وعناداً فالبناء لا يعلو إذا لم توجد اللبنات المرصوصة، وقد تفقد الأرض التي يشيد عليها البناء، فالقلوب أوعية متفاوتة جداً، ورؤيتها للحقائق والاستفادة منها متفاوتة جداً أيضاً.

الفطرة السليمة لا تشک في وجود الله سبحانه وتعالى (قالت رسلاهم أفي الله شک فاطر السماوات والأرض) (ابراهيم/10) والقرآن الكريم يحث الإنسان لیستعمل عقله ويرى الأمور بشكلها الصحيح، ويفكر في الحقائق المعروضة ، قال تعالى مبينا ضعف عقول المشركين (واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون، ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً) (الفرقان/3) وقال تعالى داعياً الإنسان إلى التفكير في هذه الظاهرة الواضحة التي لا مفر منها (ومن عمره ننكسه في الخلق أفلأ تعقلون) (يس/68) ”ومن طرائق القرآن أن يبدأ بالحجج المنطقية والبرهان العقلي ثم يتدرج إلى الإنذار والتوبیخ وبيان فساد ما عليه الكفار وأهل الباطل، قال تعالى على لسان ابراهيم عليه السلام (إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً، يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمٰن عصياً، يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولها) (مریم/42-45)[1] وقد أوقف القرآن المشركين على اضطراب عقائدهم وتناقض آراءهم (والذين تدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ، أمواط غير أحياء) وقال موضحاً تناقض أهل الكتاب ومغلطًا لهم طريقة تفكيرهم في ادعاءاتهم غير المعقولة (وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يغدكم بذنوكم بل أنتم بشر مما خلق)

ومن أنواع المحاجة والجدال بالحق أن يقال للإنسان : أين المذهب وأين المفر ، فإنك أيها الإنسان محاط بسنن الله الكونية وما خلق في السماوات والأرض ، هل تستطيع أيها الإنسان أن تخرج عن هذه السنن ؟ وهل تستغنى عن فضل الله وتسخّره كل شيء لك، أي أن القرآن يحيي البشر للنظر في الأمر والواقع. قال تعالى (واية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون وإن نشأ نغرقهم فلا صریخ لهم ولا هم ينقذون) (يس/ 41) وقال تعالى (من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع فلينظرهل يذهبن كيده ما يغrieve) (الحج/ 15) وقال تعالى (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مریم، قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مریم وأمه ومن في الأرض جميعاً) (المائدۃ/17).

ويحضر القرآن الكلام المتناقض الذي ليس عليه أي دليل، الواقع يدفعه ويكتبه، بل هو من المستحيلات كاتهام قريش –وكذلك بعض المستشرقين اليوم- للنبي صلی الله عليه وسلم أنه تعلم من أنس من أهل الكتاب كانوا في مكة، (وكذلك نصرف الآيات ول يقولوا درستَ، ولنبيه لقوم يعلمون) (الأنعام/ 105) أي قرأت على غيرك وتعلمت منهم، قال تعالى (ولقد نعلم أنهم يقولون: إنما يعلّمهم بشر، لسان الذين يلحدون إليه أعمامي وهذا لسان عربي مبين) (النحل/ 103) فإذا كان العرب الأقحاح وقفوا حائرين أمام فصاحة القرآن وإعجازه البیانی، وقد تحدّهم أن يأتوا بمثله أو بسورة مثله، هذا وهم الفصحاء البلغاء الذين يعرفون مكانن البلاجة في القول فكيف يتعلّم الرسول صلی الله عليه وسلم من عبدين من الروم كانوا في مكة؟! هذا كلام متهافت لا يقوله إلا معاند صاحب هوى.

وإذا كانت هذه البراهين والحجج العقلية لا تنفع مع بعض الناس فإن القرآن الكريم يقول لهم: انتظروا المستقبل لترووا بأعينكم النتائج والمصير، وستعلمون عندئذ الحقائق (قل كل متربص، فترقصوا فستعلمون من أصحاب الصراط السوی ومن اهتدی) (طه/ 135) (وكذب به قومك وهو الحق، قل لست عليكم بوكييل لكل نباً مستقر وسوف تعلمون) (الأنعام/66) وقال تعالى حاكيا قول الكفار ورداً عليهم (أنزلنا عليه الذكر من بيننا، بل هم في شك من ذكري، بل لما يذوقوا عذاب) (ص/8) ”أي لو ذاقوه لتحققو أن هذه الرسالة حق، أي هم لجهالتهم لا يستعلمون النظر ولا يستفيدون منه، ولكن يتضح لهم الحق عند مباشرة العذاب”[2]

وقد يستعمل القرآن أسلوب الرجوع إلى التاريخ ومعرفة مصير الأمم السابقة ليكون ذلك مثار التأمل والعبرة وأن السنن واحدة لا تتبدل، فما حصل سابقاً يمكن أن يحصل لاحقاً، (أو لم يرواكم أهلكنا من قبليهم من قرن مكانهم في الأرض ما لم

نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهر تجري من تحتهم فأهل كانوا بهم بذنبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين)
(الأنعام/6)

[1] – انظر ابن سعدي ، القواعد الحسان لتفسير القرآن 3/

[2] – تفسير ابن عطية

المركز الإعلامي السوري

المصادر: